النص الكامل

مغامرات

شيرلوك هولمز

٩

تأليف:
آرثر كونان دويل

مغامرة إبْهام المهندس



الأجيال
للترجمة والنشر
AJYAL Publishers

بالرسومات الأصلية





مغامرات

شيرلوك هولمز

(٩)

مغامرة إبْهام المهندس

نُشرت للمرة الأولى في صحيفة «ستراند» الشهرية
في عدد آذار (مارس) ١٨٩٢

تأليف: آرثر كونان دويل
ترجمة: سالي أحمد حمدي
تحرير: رمزي رامز حسّون



الطبعة الأولى
٢٠٠٧

العنوان الإلكتروني للناشر
info@al-ajyal.com

موقعنا على الإنترنت
www.al-ajyal.com



آرثر كونان دويل

وُلد آرثر كونان دويل لأسرة متوسطة الحال في إدنبرة في إسكتلندا في الثاني والعشرين من أيار (مايو) عام ١٨٥٩ ، والتحق بكلية الطب فيها وعمره سبعة عشر عاماً. وكان من مدرّسيه في الكلية الجرّاحُ الشهير الدكتور جوزيف بِلْ، وهو الذي أوحى إليه بشخصية شيرلوك هولمز التي ابتكرها بعد ذلك.

في عام ١٨٨٢ حصل دويل على شهادة الطب من جامعة إدنبرة، وكان يحلم بأن يصبح جرّاحاً وخبيراً في التشخيص مثل الدكتور بل، ولكن قلة المال اضطرته إلى العمل طبيباً على سفينة لصيد الحيتان.

بعد ذلك مارس مهنته في منزل صغير استأجره في بعض ضواحي بورتْسماوث، ولكن عدد المرضى كان قليلاً فاتجه إلى الكتابة أملاً في الحصول على بعض الدخل الإضافي. وقد كتب بعضاً من قصص المغامرات لمجلاّت الفتيان، ولكن أجره عنها كان ضئيلاً، وفشلت روايته الأولى في العثور على ناشر.

وفي غمرة إحساسه باليأس فكّر في أساليب الدكتور بل في التشخيص وقرر أن يستخدمها في قصة يكون بطلها واحداً من رجال التحري؛ وهكذا وُلد شيرلوك هولمز في رواية «دراسة قرمزية» التي نشرها دويل سنة ١٨٨٧.

لقد ابتكر دويل شخصية تفيض بالحياة، حتى إن الجماهير رفضت أن تصدق أنها شخصية خيالية! وكان المؤلف يتلقى بانتظام خطابات موجَّهة إلى هولمز تطلب مساعدته في حل قضايا حقيقية، وبعض هذه القضايا أدى إلى كشف قدرة دويل نفسه.

كانت إحدى هذه الحوادث تتعلق برجل سحب كل أمواله من البنك وحجز غرفة في أحد فنادق لندن، ثم حضر حفلاً عاد بعده إلى فندقه حيث أبدل ملابسه ثم اختفى. وعجز رجال الشرطة عن اكتشاف مكانه، وخشيت أسرته أن يكون قد أصيب بسوء، لكن دويل حلّ المشكلة سريعاً إذ قال: "سوف تجدون رجلكم في

غلاسكو أو إدنبرة، وقد ذهب هناك بمحض إرادته. إن سحب كل أمواله من البنك يشير إلى الهروب المتعمَّد، والحفل الذي كان فيه ينتهي في الساعة الحادية عشرة، ولمّا كان قد أبدل ملابسه بعد عودته فلا بدّ أنه كان ينوي القيام برحلة، والقطارات السريعة المتجهة إلى إسكتلندا تغادر محطة كينغز كروس عند منتصف الليل". وقد عُثر على الرجل في إدنبرة فعلاً!

كان آرثر كونان دويل رياضياً متعدد المواهب، فقد مارس الملاكمة وكرة القدم والبولينغ والكريكت، وكان خطيباً مفوَّهاً ومحاضراً ناجحاً ومحاوراً بارعاً، وقد ذاعت آراؤه وأفكاره المتنوعة في الطب والعلم والأدب والسياسة والاجتماع.



وفي عام ١٩٠٠ تطوّع الدكتور دويل في حرب البُوِير (في جنوب إفريقيا) وصار كبيراً للجرّاحين في واحد من المستشفيات الميدانية، وفي نهاية الحرب مُنح وسام الفروسية ولقب «سير» تقديراً لخدماته. وقد أصدر بعد عودته

إلى إنكلترا كتاباً مهماً عن هذه الحرب.

وتوفي السير آرثر كونان دويل في السابع من تموز (يوليو) عام ١٩٣٠ بعد أن بلغ الحادية والسبعين، بعد ثلاث سنوات من كتابة آخر قصصه عن شيرلوك هولمز وبعد مرور أكثر من أربعين عاماً على أول ظهور علني لهذه الشخصية الخارقة.

❊ ❊ ❊



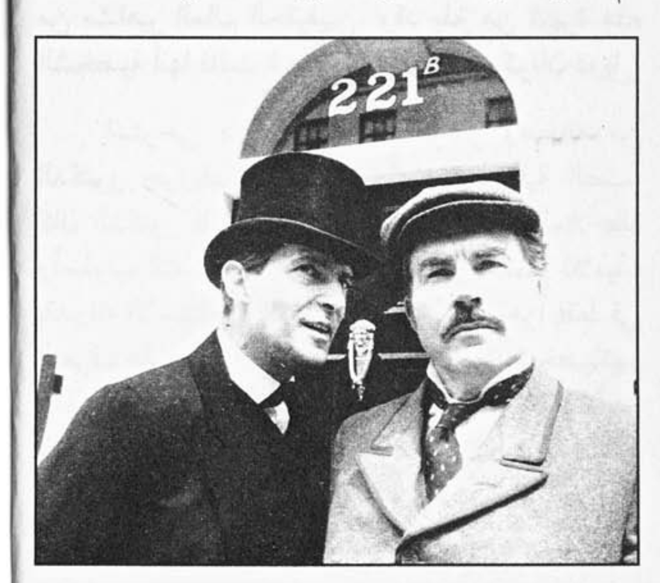
شيرلوك هولمز وعالَمه

ربما كان شيرلوك هولمز أشهرَ الشخصيات الخيالية في التاريخ، بل إنه يكاد يفوق في شهرته كثيراً من مشاهير العالم الحقيقيين. وقد بلغ من شهرة هذه الشخصية أنها فاقت شهرةَ مبتكرها، آرثر كونان دويل.

استوحى دويل شخصية هولمز وصفاته من الدكتور جوزيف بِلْ الذي درّسه في كلية الطب. كان الدكتور بِلْ يتمتع بموهبة عظيمة في الملاحظة وأسلوب التفكير المنطقي، وكان يثير اهتمام تلاميذه بقدراته الاستنتاجية الفذة، فهو لم يكن ماهراً فقط في التعرف على علل المرضى، بل وفي معرفة شخصياتهم ومِهَنهم وتفصيلات خفية عنهم أيضاً. كان يقول لأحد المرضى مثلاً: "أنت ضابط سُرِّح من الجيش حديثاً، وقد عدتَ لتوّك من بربادوس، وأنت تعاني من داء الفيل". وبعد أن تسيطر الدهشة على المريض والطلبة

على السواء يشرح الدكتور بل الأمر قائلاً إن الرجل يبدو جندياً من هيئته، وعدم خلع قبعته عند دخوله الغرفة يدل على أنه ترك الخدمة حديثاً، وهو يملك مظاهر السلطة كتلك التي توجد لدى الضباط، وتدل بشرته التي لوّحتها الشمس والمرض الذي يشكو منه على أنه جاء من منطقة استوائية، وقد جاء من بربادوس لأن هذا المرض بالذات منتشر هناك!

«وُلد» شيرلوك هولمز -في عالَمه الخيالي- سنة ١٨٥٤ وحصل على شهادة جامعية لم يحدّدها دويل، ثم احترف مهنة «محقق خاص» منذ نحو سنة ١٨٧٨،



وكان يقيم في شارع بيكر في العاصمة البريطانية لندن، ورقم البيت الذي يقيم فيه هو «٢٢١ب». وقد لا نبالغ إذا قلنا إن هذا العنوان (٢٢١ب شارع بيكر) هو أشهر عنوان في العصر الحديث! وقد برع هولمز في كشف الجرائم وحل الألغاز الغامضة بفضل دقة ملاحظته وقدرته العظيمة على الاستنتاج والتحليل المنطقي، بالإضافة إلى غزارة معلوماته واطّلاعه الواسع على العلوم المختلفة.

أما الدكتور واطسون، صديق هولمز ومساعده الذي يرافقه في قصصه كلها، فلا يكاد يقل شهرة عن هولمز نفسه، وهو رَاوِية القصص الذي يقصّها علينا (كما فعل بعد ذلك هيستنغز في كثير من مغامرات بوارو). وهو طبيب وُلد نحو سنة ١٨٥٢ وتخرج طبيباً سنة ١٨٧٨، ثم انضم إلى الجيش سنة ١٨٨٠ وأمضى مدة خدمته في أفغانستان مع الجيش البريطاني، ثم عاد إلى بلده وتقاعد من الجيش بعدما أصيب في إحدى المعارك، وعندها تعرف إلى شيرلوك هولمز في مختبر الكيمياء بمستشفى ستامفورد في أوائل سنة ١٨٨١، ولم يفترق الصديقان بعد ذلك قط. وقد تزوج الدكتور واطسون في أواخر سنة ١٨٨٦، لكن دويل لم يشأ أن يعرّفنا إلى زوجته ولم يذكر لنا اسمها.

في قصة «المشكلة الأخيرة» التي نُشرت في نهاية

عام ١٨٩٣ «قتل» دويل بطله شيرلوك هولمز، لكنه واجه احتجاجاً عارماً من جماهير القراء فقرر إعادة إحياء هذه الشخصية الخيالية من جديد، فعاد هولمز إلى الظهور مرة أخرى في أواخر عام ١٩٠٣ ليستأنف حل القضايا الغامضة.

* * *



قصص شيرلوك هولمز

أول قصة نشرها دويل كانت في عام ١٨٧٩، وهي قصة قصيرة عنوانها «إفادة السيد جِفْسون»، أما أول رواية نشرها من بطولة شيرلوك هولمز فكانت «دراسة قرمزية»، وقد صدرت في بريطانيا عام ١٨٨٧ فلم يَكَد يُحِسّ بها أحد، لكنها حققت نجاحاً معتدلاً في الولايات المتحدة. وبعدها نشر رواية طويلة ثانية من بطولة شيرلوك هولمز، وهي رواية «علامة الأربعة» التي نُشرت عام ١٨٩٠ فوطّدت شخصيةَ هولمز في بريطانيا وأمريكا على السواء.

وفي السنة التالية (١٨٩١) بدأ نشر مجموعة «مغامرات شيرلوك هولمز» في حلقات شهرية في مجلة «ستراند»، بدءاً بقصة «فضيحة في بوهيميا» التي ظهرت في عدد تموز (يوليو)، فقوبلت هذه القصص بنجاح كبير غير مسبوق في تاريخ الصحافة البريطانية، ودخلت هذه الشخصية الخيالية التاريخَ من بابه الواسع، حيث صارت حديثَ المجتمع وشغلَ الناس في أنحاء البلاد.

وقد بلغ عدد قصص هذه السلسلة اثنتَي عشرة نُشر آخرها في عدد حزيران (يونيو) من عام ١٨٩٢. ثم ظهرت سلسلة «ذكريات شيرلوك هولمز» التي نُشرت في اثنتَي عشرة حلقة أيضاً صدر أولها في كانون الأول (ديسمبر) ١٨٩٢، ويبدو أن دويل بدأ يملّ عندئذ من كتابة قصص شيرلوك هولمز، ولذلك «قتله» في آخر قصة من هذه المجموعة في معركة مع البروفسور موريارتي الشرّير عند شلالات رايشِنْباخ في سويسرا! وقد نُشرت هذه القصة (وعنوانها «المشكلة الأخيرة») في كانون الأول (ديسمبر) عام ١٨٩٣.

وثار جمهور دويل غضباً وانهالت عليه ألوف الخطابات تستنكر عمله وخسرت المجلة عشرين ألف اشتراك، ولكن دويل تمسّك بموقفه، فقد شعر بأن شيرلوك هولمز يحول بينه وبين أعمال أكثر أهمية. ثم وافق أخيراً بسبب الإلحاح الذي لم ينقطع على «بعث» شيرلوك هولمز، فأعاده إلى العمل في قصة «مغامرة المنزل الخالي» التي نُشرت في مجلة «ستراند» في تشرين الأول (أكتوبر) عام ١٩٠٣.

وعاد شيرلوك هولمز إلى الأضواء من جديد؛ فقد تبيّن أنه لم يُقتَل على الإطلاق، وفي تلك القصة (المنزل الخالي) شرح دويل كيف نجا هولمز من الموت بأعجوبة، ثم شقّ طريقه بعد ذلك إلى بلاد

التبّت لمساعدة اللاما الكبير، ثم عاد إلى لندن ليحقق في وفاة ابن أحد اللوردات بطريقة غامضة. وقد أثارت عودة شيرلوك هولمز في مجلة «ستراند» في بريطانيا ومجلة «كوليِرْز» في أمريكا حماسة بالغة في نفوس عشّاقه المخلصين وحققت للمجلتين مبيعات غير مسبوقة. واستمر نشر سلسلة «عودة شيرلوك هولمز» (التي بلغ عدد حلقاتها ثلاث عشرة حلقة) حتى كانون الأول (ديسمبر) ١٩٠٤.

وكان دويل قد نشر قبل هذه السلسلة روايةَ شيرلوك هولمز الطويلة الثالثة «كلب عائلة باسكرفيل»، وقد استمر نشر حلقاتها من آب (أغسطس) ١٩٠١ إلى نيسان (أبريل) ١٩٠٢، وهي أشهر روايات شيرلوك هولمز على الإطلاق.

وبعدها صدرت سلسلة «الظهور الأخير» التي تضم سبع قصص نُشرت على حلقات متباعدة بين أيلول (سبتمبر) ١٩٠٨ وكانون الأول (ديسمبر) ١٩١٣، ثم الرواية الطويلة الرابعة «وادي الرعب» (٩/١٩١٤-٥/١٩١٥)، وهي أعظم روايات شيرلوك هولمز كما يقول النقّاد. وأخيراً سلسلة «قضايا شيرلوك هولمز» (١٠/١٩٢١-٤/١٩٢٧) التي نُشرت آخر حلقاتها بعد أربعين سنة تماماً من صدور أولى روايات شيرلوك هولمز.

ولم تقتصر مؤلفات آرثر كونان دويل على قصص وروايات شيرلوك هولمز، فقد ألّف كتباً كثيرة غيرها، منها روايات تاريخية ورومنسية ومسرحيات، بالإضافة إلى عدد كبير من الكتب والدراسات الغير الروائية.

والحقيقة أنه كان كاتباً غزير الإنتاج، فقد بلغ ما تركه من المؤلفات نحو مئة وستين، منها ستّون من قصص وروايات شيرلوك هولمز، وخمس روايات من بطولة شخصية خيالية أخرى ابتكرها هي شخصية عالِم اسمه البروفيسور تشالنجر، وأشهر هذه الروايات هي «العالَم المفقود»، ونحو أربعين رواية من الروايات المتنوعة، بالإضافة إلى عشر مسرحيات، وأربعة دواوين شعرية، وأكثر من خمسين كتاباً وكتيّباً في الشؤون الاجتماعية والسياسية والعسكرية، وكتاب ذكرياته الجميل الذي سمّاه «ذكريات ومغامرات».

* * *



رسّام شيرلوك هولمز الأشهر

تعاقب على رسم شخصية شيرلوك هولمز عددٌ من الرسّامين، لكن أشهرهم وأعظمهم -بلا خلاف- كان الرسام الإنكليزي سدني باجيت الذي صاحَبَ روايات هولمز وقصصَه منذ ولادتها المبكرة، وهو الذي بَلْوَر صورة شيرلوك هولمز وطبَعَها في عيون القراء على مدار السنين.

والغريب أن المجلة لم تسعَ ابتداءً خلف سدني باجيت بل خلف أخيه الأكبر ولتر الذي كان قد نجح في رسم رسومات قصّتَي «جزيرة الكنز» و«روبنسون كروزو»، لكن خطأً في الاتصالات تسبب في دعوة سدني، الأخ الأصغر، لرسم صور القصص الستّ

مغامرة إبّهام المهندس

الأولى التي نشرتها مجلة «ستراند» في النصف الثاني من عام ١٨٩١، وعلى إثر النجاح الهائل الذي لقيَته هذه القصص مع رسوماتها التصق سدني باجيت بآرثر كونان دويل لتصبح رسومات هذا بنفس أهمية كتابة ذاك في عالم شيرلوك هولمز. وقد استمر سدني باجيت برسم الصور لقصص وروايات شيرلوك هولمز حتى وفاته عام ١٩٠٨، وبلغ عدد ما رسمه خلال هذه السنوات ٣٥٧ رسماً زيّنت ٣٨ قصة.

وحين توفي سدني استعانت مجلة «ستراند» برسّامين آخرين، فشارك في رسم السلسلة الجديدة «الظهور الأخير» كل من ولتر باجيت، الأخ الأكبر لسدني، وآرثر تويدل وجلبرت هاليدي وأليك بول وجوزف سمبسون. أما السلسلة الأخيرة -وهي «قضايا شيرلوك هولمز»- فقد رسمها ثلاثة من الرسامين هم أ. جلبرت وهاوارد إلكوك وفرانك وايلز.

هذا في نسخة هولمز البريطانية التي نشرتها مجلة «ستراند»، أما في أمريكا فقد استعانت مجلة «كوليِرْز» بعدد من الرسامين أشهرهم فردريك دورْ ستيل، ومنهم و هـ هايد وجوزف فريدرتش ورتشارد غوتشمت.

* * *

هذه الأحداث التي أهمّ بتلخيصها وقعت في صيف عام ١٨٨٩، بعد زواجي بوقت قصير. وكنت قد عدت إلى مزاولة الطب في عيادة مدنية وتركت أخيراً مسكن هولمز في شارع بيكر، رغم أنني كنت أزوره باستمرار. وقد ازدهرت عيادتي تدريجياً، ولأنني أعيش على مسافة غير بعيدة من محطة بادنغتون فقد صار من مرضاي الذين يترددون على عيادتي بعض موظفي المحطة، وأخذ أحدهم (وكنت قد عالجته من مرض مؤلم مزمن) يعلن عن مزاياي دون كلل ويسعى لأن يرسل إلى عيادتي كلَّ صاحب معاناة ممّن يملك عليهم تأثيراً.

أيقظتني الخادمة حين طرقت على الباب في صباح أحد الأيام قبل السابعة بقليل لتعلن عن قدوم رجلين من محطة بادنغتون، قائلة إنهما ينتظران في غرفة الكشف، فارتديت ملابسي بسرعة لأنني أعرف -بالتجربة- أن حالات موظفي السكك الحديدية نادراً ما تكون تافهة، وعجّلت بالنزول إلى الطابق السفلي. وبينما أنا أنزل خرج عميلي القديم

من الغرفة وأغلق الباب خلفه بإحكام، ثم همس قائلاً وهو يهزّ بإبهامه فوق كتفه: لقد أحضرته إليك، إنه بخير.

أوحت إليّ تصرفاته بأنه قد قام بحبس مخلوق غريب في غرفتي، فسألته: وما هو الأمر؟

فهمس قائلاً: إنه مريض جديد، فكرت في إحضاره بنفسي حتى لا يستطيع التملّص، وها هو هنا بأمن وسلام. يجب أن أنصرف الآن يا دكتور فعندي واجبات مثلك تماماً.

ثم خرج هذا المشجِّع الوفيّ دون أن يسمح لي بشكره!

دخلت إلى غرفة الفحص فوجدت شاباً جالساً بالقرب من الطاولة وقد ارتدى بشكل محافظ بدلة من الجوخ المنقّط ووضع على رأسه قبعة من القماش الناعم، وقد نزعها عن رأسه ووضعها على كتبي، وكانت إحدى يديه مربوطة بمنديل مبقَّع ببقع الدم. كان شاباً لا يزيد عمره عن الخامسة والعشرين وله وجه رجولي قوي، ولكنه كان شاحباً جداً وأعطاني انطباعاً بأنه يعاني من اضطراب شديد احتاج إلى كل تركيزه ليتحكم فيه.

قال: أنا آسف لأنني قرعت بابك في هذا الوقت المبكر يا دكتور، ولكن حادثة خطيرة جداً وقعت لي في أثناء الليل، فجئت بالقطار هذا الصباح، وحين سألت في محطة بادنغتون عن طبيب تكرّم شخص نبيل باصطحابي إليك، وقد أعطيت الخادمة بطاقتي التعريفية ولكن يبدو أنها وضعتها على تلك الطاولة الصغيرة ولم توصلها إليك.

رفعت البطاقة ونظرت إليها وقرأت: «السيد فكتور هاثرلي، مهندس هيدروليكي، ١٦ (أ) شارع فكتوريا، الطابق الثالث».

كانت تلك هي صفات زائري الصباحي واسمه وعنوانه. وقلت له وأنا أجلس على كرسي المكتب: أعتذر لأنني تركتك تنتظر لبعض الوقت. يبدو أنك قد وصلت لتوّك من رحلة ليلية كما فهمت، وهذه الرحلات تكون رتيبة في العادة.

فقال: آه، لا يمكن القول بأن ليلتي كانت رتيبة.

ثم ضحك بحرارة شديدة بصوت رنّان عالٍ ومال إلى الخلف في كرسيه واهتز جنباه، فثارت غريزتي الطبية ضد هذا الضحك وصِحت قائلاً:

توقف، تمالك نفسك.

ثم صببت له بعض الماء من الإبريق الزجاجي، ولكن عملي هذا بقي بلا فائدة؛ فقد انطلق في واحدة من تلك الانفجارات الهستيريّة التي تصيب أصحاب الشخصيات القوية بعد مرورهم بأزمة هائلة وتخطّيهم لها، إلا أنه عاد إلى طبيعته ثانية بعد وقت قصير، ولكنه كان متعباً جداً وشديد الشحوب. وشهق قائلاً: لقد تصرفت بحماقة.

- لا، على الإطلاق، اشرب هذا الماء.

بدأ اللون يعود إلى خدَّيه الشاحبين وقال: هذا أفضل. والآن يا دكتور أرجو أن تهتم بإبهامي، أو بالأحرى بالمكان الذي كان فيه إبهامي.

ثم فكّ المنديل ورفع يده التي صدمتني رؤيتها برغم صلابة أعصابي، فقد رأيت أربعة أصابع وسطحاً بشعاً إسفنجي الشكل أحمر اللون في مكان الإبهام الذي كان قد قُطع أو اقتُلع من جذوره!

صِحت قائلاً: يا إلهي! هذه إصابة رهيبة، لا بد أنك نزفت كثيراً.

- نعم، بالفعل كما أنني فقدت وعيي عندما

وقعت الحادثة، وأحسب أنني غبت عن الوعي لمدة طويلة، وعندما أفقت ووجدت الإصابة ما زالت تنزف فربطت أحد أطراف منديلي حول الرسغ بشدة وثبتُّه إلى الأعلى بغصن صغير.

- ممتاز، كان من المفروض أن تكون جرّاحاً.

- إن الأمر مرتبط بحركة السوائل كما ترى، وهذا يدخل ضمن اختصاصي.



Sydney Paget 1892 رسم سدني باجيت ١٨٩٢

فقلت وأنا أفحص الجرح: لقد حدث هذا الجرح بواسطة أداة حادة وثقيلة جداً.

فقال: إنه شيء مثل الساطور.

- حادثة على ما أظن؟

- على الإطلاق.

- ماذا إذن؟ هجوم إجرامي؟

- إجرامي جداً.

- إنك تخيفني.

مسحت الجرح ونظّفته ثم ضمدته، وأخيراً غطيته بقطعة من القطن وضمادات معقمة، وقد استلقى الرجل دون أي حراك لكنه راح يعضّ على شفتيه من حين إلى آخر، وعندما انتهيت سألته: ما رأيك في هذا العمل؟

- ممتاز، أشعر الآن وكأنني رجل جديد، فقد كنت أشعر بضعف شديد، ولكنني مررت بالكثير.

- ربما كان من الأفضل أن لا تتحدث عن الأمر، فمن الواضح أن هذا سيجهد أعصابك.

- آه، ليس الآن، فأنا مضطر إلى قصّ حكايتي على الشرطة، ولولا هذا الجرح الذي يصلح دليلاً مقنعاً على ما حدث لكنت قد فوجئت لو صدّقوا روايتي. إنها قصة غريبة جداً ولا أملك أي دليل يدعمها، وحتى لو صدقوني فالأدلة التي أستطيع تقديمها لهم مبهمة جداً، حتى لأشكّ في أن العدالة ستأخذ مجراها.

هتفت قائلاً: لو أنها معضلة ترغب في حلها فأنا أوصيك بأن تلجأ إلى صديقي السيد شيرلوك هولمز قبل أن تذهب إلى الشرطة.

فأجاب زائري: آه، لقد سمعت بهذا الرجل وسوف يسرني أن يتولّى هذه القضية بنفسه، هل يمكن أن تعطيني بطاقة تعريف لأقدمها إليه؟

- سوف أقوم بأفضل من ذلك؛ سآخذك إليه بنفسي.

- سأكون ممتناً لك غاية الامتنان.

- سنطلب عربة أجرة ونذهب معاً، وهكذا نصل في الوقت المناسب لتناول إفطار بسيط معه. أتحسّ أنك قادر على ذلك؟

- نعم، فلن أشعر بالراحة حتى أحكي قصتي.

- سيطلب خادمي عربة أجرة إذن، وسأكون معك بعد لحظة.

وأسرعت إلى الطابق العلوي لأشرح الأمر لزوجتي باختصار، وفي خلال خمس دقائق كنت برفقة الشخص الذي تعرفت إليه لتوّي في عربة صغيرة تقودنا إلى شارع بيكر.

* * *

كما توقعت كان شيرلوك هولمز مسترخياً في غرفة الجلوس وقد ارتدى رداءه المنزلي وانهمك في قراءة صفحة الإعلانات الشخصية في جريدة التايمز. استقبلنا بطريقته الهادئة اللطيفة وأمر بإحضار المزيد من شرائح اللحم والبيض ثم شاركَنا وجبة إفطار مشبعة، وعندما انتهينا دعا صاحبَنا الجديد إلى الجلوس على الأريكة ووضع وسادة تحت رأسه وكأساً من الماء في متناول يده، ثم قال: من الواضح أن تجربتك لم تكن عادية يا سيد هاثرلي. أرجو أن ترقد على الأريكة وترتاح كما لو كنت في بيتك، وأخبرنا بما تستطيع، ولك أن تتوقف عندما تتعب.

فقال مريضي: شكراً لك، ولكنني أشعر

بتحسن بعد أن ضمّد الطبيب جرحي، وأظن أن إفطارك قد أكمل الشفاء. سآخذ من وقتك الثمين أقل وقت ممكن، وسأبدأ بقصّ تجربتي الغريبة على الفور.

جلس هولمز في مقعده الكبير المريح بتعبير متكاسل وعينين نصف مغلقتين تخفيان وراءهما طبيعتَه اليقظة المتحمّسة، وجلست أنا في المقعد المقابل، وأخذنا نستمع في صمت إلى القصة الغريبة التي قام زائرنا بقصّ تفصيلاتها علينا.



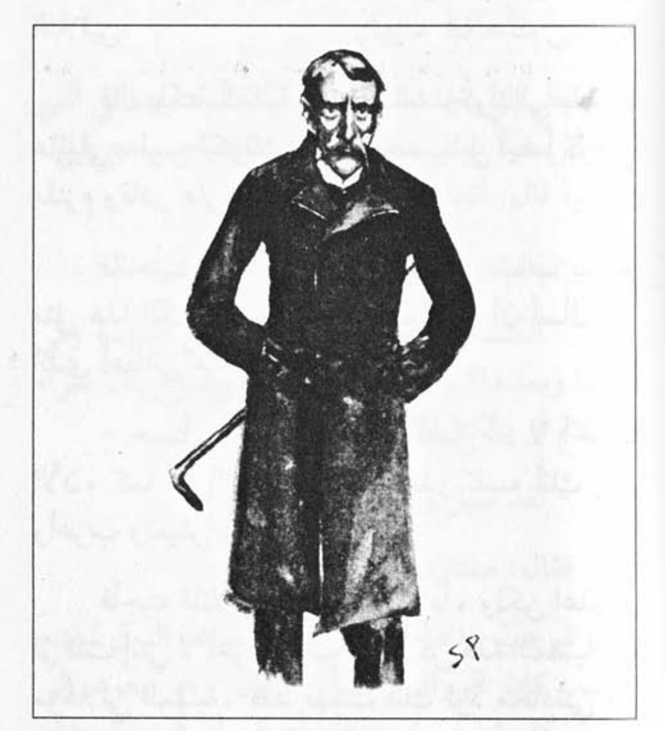
رسم سدني باجيت ١٨٩٢ Sydney Paget 1892

قال الزائر: يجب أن تعرفا أنني يتيم وأعزب وأسكن وحدي في مسكن في لندن، ومهنتي هي مهندس هيدروليكي، وقد حصلت على خبرة كبيرة خلال السنوات السبع التي تدربت فيها في شركة فينَر وماثسون المعروفة في غرينتش. ومنذ عامين أتممت فترة التدريب وحصلت أيضاً على مبلغ جيد من المال بعد وفاة والدي، وعندها قررت أن أبدأ عملاً خاصاً واستأجرت موقعاً مناسباً للعمل في شارع فكتوريا.

لا بدّ أن كل شخص يجد في بداياته المستقلّة الأولى في العمل تجربة كئيبة، وبالنسبة لي كان الأمر كذلك بشكل كبير، فخلال عامين لم أحصل إلا على ثلاث استشارات ومهمة واحدة صغيرة، هذا هو كل ما جلبه لي عملي، وقد بلغ دخلي الإجمالي مبلغاً قدره سبعة وعشرون جنيهاً وعشرة شلنات، وكنت أنتظر كل يوم في مقر عملي من التاسعة صباحاً حتى الرابعة بعد الظهر، حتى بدأت أخيراً أقتنع أنه لم يكن من المفروض أن أفتح مكتبي الخاص على الإطلاق.

وفيما كنت أهمّ بمغادرة المكتب في الأمس دخل سكرتيري ليقول إن سيداً محترماً ينتظر ويرجو

رؤيتي بخصوص عمل، وأحضر بطاقة تعريف مطبوعاً عليها اسم الكولونيل ليساندَر ستارْك. وفي أعقابه دخل الكولونيل بنفسه، وهو رجل يزيد حجمه على المتوسط ولكنه نحيف جداً، ولا أظن أني رأيت رجلاً بمثل هذه النحافة من قبل، فقد ظهر وكأن كل وجهه قد تحول إلى أنف وذقن حادّين،



رسم سدني باجيت ١٨٩٢ Sydney Paget 1892

بينما بدت بشرة خديه مشدودة جداً فوق عظامه الناتئة، وإن بدا واضحاً أن هذا الهُزال جزء من طبيعة بنيته الجسميّة وليس من جرّاء مرض عُضال، فقد كانت له عينان لامعتان وبدت خطواته سريعة وتصرفاته واثقة، وكانت ملابسه بسيطة ولكنها مرتبة وعمره -بتقديري- أقرب إلى الأربعين منه إلى الثلاثين.

قال بلكنة ألمانية بسيطة: لقد زكّوك لي يا سيد هاثرلي، ليس لكونك ماهراً فحسب بل أيضاً كرجل ملتزم وقادر على حفظ السر.

فانحنيت وأنا أشعر بالزّهو كأي شاب يسمع مثل هذا الكلام، وقلت: هل يمكنني أن أسأل من الذي أعطاني هذه التزكية؟

- حسناً، ربما كان من الأفضل أن لا أخبرك الآن، كما أنني عرفت من المصدر نفسه أنك يتيم وأعزب وتعيش وحيداً في لندن.

فأجبته قائلاً: هذا صحيح تماماً، ولكن اعذرني لو قلت إنني لا أعرف كيف تدعم كل هذه التفصيلات مؤهّلاتي المِهَنية، فقد فهمت أنك تودّ محادثتي في مسألة عمل.

- بلا شك، ولكنك ستكتشف أن كل ما أقوله لك في صميم الموضوع؛ فأنا أقدّم لك عملاً، ولكن الكتمان المطلق شرط أساسي فيه. الكتمان المطلق، أتفهم؟ وبالطبع فإننا نتوقع ذلك من رجل وحيد أكثر مما نتوقعه من شخص يعيش في أحضان عائلته.

فقلت: إذا وعدتك بالسرّية فيمكنك أن تتأكد من أنني سأحافظ عليها.

نظر إليّ بحدة شديدة وأنا أتكلم، وبدا لي أنني لم أقابل عيناً بمثل هذا التشكك والتفحّص من قبل، وأخيراً قال: أتعدني بذلك؟

- نعم، أعِدُك.

- الكتمان المطلق والكامل، قبل المهمة وفي أثنائها وبعدها؟ وأن لا تشير إلى الموضوع بتاتاً سواء بالكلام أو بالكتابة؟

- لقد سبق وأعطيتك كلمتي.

فقال: ممتاز.

ثم هبّ واقفاً فجأة وانطلق بسرعة البرق ليفتح الباب. كان الرواق خالياً، وقال وهو يعود إلى مكانه: كل شيء بخير، فأنا أعرف أن الموظفين قد

يتابعهم الفضول ليعرفوا ما يخصّ أسيادهم، أما الآن فنستطيع التحدث بحرية.

سحب كرسيه فاقترب مني غاية الاقتراب، ثم عاد ليحدق إليّ ثانية بنفس النظرة المتفحصة المتشككة، فانتابني شعور بالنفور وشيء أشبه بالخوف بسبب التصرفات الغريبة للرجل الهزيل، وحتى خوفي من فقدان عميل لم يردعني عن إظهار نفاد صبري، فقلت: أرجو أن تخبرني عن العمل يا سيدي، فوقتي ثمين.

كان هذا ما قلته لزائري، وليغفر لي الله هذه الكذبة. فسألني: أيناسبك خمسون جنيهاً في ليلة عمل؟

- يناسبني بشكل ممتاز.

- أقول عمل ليلة، وإن كانت المهمة لن تستغرق أكثر من ساعة في الحقيقة؛ فأنا أريد رأيك في مكبس هيدروليكي لا يعمل كما ينبغي، وإذا ما قمت بإرشادنا إلى سبب العطل فسوف نقوم بإصلاحه بأنفسنا. ما رأيك بهذه المهمة؟

- يبدو العمل هيّناً والأجر سخياً.

- تماماً، نريدك أن تأتي إلينا الليلة في القطار الأخير.

- إلى أين؟

- إلى بلدة آيْفورد في مقاطعة بيركْشَاير. إنها بلدة صغيرة بالقرب من حدود أكسفورْدشاير وتبعد عن ريدنْغ سبعة أميال. إذا ركبت القطار من محطة بادنغتون فسوف يصل بك في نحو الساعة الحادية عشرة والربع.

- ممتاز.

- وسأحضر في عربة لاستقبالك.

- أمامنا مسافة لنقطعها بالعربة إذن؟

- نعم؛ إن مسكننا الصغير بعيد في الريف، فهو على بعد سبعة أميال من محطة آيفورد.

- إذن فلن نصل إلى المكان قبل منتصف الليل، فهل أجد قطاراً للعودة في ذلك الوقت أم أنني سأضطر إلى قضاء الليلة هناك؟

- يمكننا تدبير مكان لنومك بسهولة.

- هذا غريب جداً، ألا يمكن أن أذهب في

وقت أكثر ملاءمة؟

- لقد قررنا أن من الأفضل أن تحضر في وقت متأخر، ونحن ندفع لك -وأنت شاب غير معروف- أجرة نستطيع بها شراء رأي أكبر الخبراء في مهنتك، وذلك لتعويضك عن أي إزعاج. ولكن بالطبع إذا أردت الانسحاب من هذا العمل فالقرار عائد إليك.

فكرت في الجنيهات الخمسين وكيف ستكون مفيدة جداً لي فقلت: لا، أبداً، سيسعدني أن أتكيف مع ما تريد، ولكنني أرجو أن أفهم ما تريدني أن أفعله.

- تماماً، من الطبيعي أن يثير عهد السرّية الذي أخذناه عليك فضولك، وليست لديّ أية نية في إلزامك بشيء دون أن تعرف التفصيلات. هل أفترضُ أننا بأمان كامل من المتنصّتين؟

- تماماً.

- الوضع كما يأتي: أنت تعرف مسحوق القَصْر، وهو مسحوق يستعمل في تَبييض الثياب. هذا المسحوق منتَج ثمين ولا يوجد في إنكلترا إلا في أماكن قليلة.

- أعرف ذلك.

- وقد اشتريت منذ زمن قصير أرضاً صغيرة، صغيرة جداً، تبعد عن ريدنغ عشرة أميال، وحالفني الحظ فاكتشفت ترسّبات لمسحوق القَصْر في أحد حقولي، وبفحصه وجدت أن تلك البقعة صغيرة نسبياً وأنها تمثّل وصلة بين حقلين أكبر كثيراً على اليمين وعلى اليسار، وكلاهما في أراضي جيراني. هؤلاء الناس الطيبون غافلون تماماً عن أن أرضهم تحتوي على ذلك العنصر الذي يعادل في قيمته منجماً للذهب، وبطبيعة الحال رغبت في شراء أراضيهم قبل أن يعرفوا القيمة الحقيقية، ولكن من سوء حظي أنني لا أملك رأس المال الذي أستطيع به تنفيذ ذلك، فاستشرت بعض الأصدقاء المقرَّبين فاقترحوا أن نقوم باستخراج مخزوننا الصغير وبيعه بسرّية وهدوء، وبهذا نستطيع كسب ما يمكّننا من شراء الحقول المجاورة. وهذا هو ما نفعله الآن ومنذ بعض الوقت، وقد قمنا باستخدام مكبس هيدروليكي ليساعدنا في مهمتنا، وهذا المكبس -كما شرحت لك- تعطل ونريد منك أن تنصحنا بشأنه. وبالرغم من أننا نحافظ على سرّنا بحرص فلو عرف الناس أن مهندساً هيدروليكياً جاء إلى منزلنا الصغير فسوف يبدؤون بالتساؤل على الفور، وعندها قد تظهر الحقيقة ونفقد الفرصة لشراء تلك

الحقول وتفشل خططنا كلها. لهذا جعلتك تعدني بأنك لن تخبر مخلوقاً بقدومك إلى آيفورد الليلة. أرجو أن أكون قد أوضحت كل شيء.

قلت: فهمتك تماماً، لكن النقطة الوحيدة التي لم أفهمها هي دور المكبس الهيدروليكي في استخراج التراب، فهو يُستخرَج بالحفر كما فهمت؟

فقال بلامبالاة: آه، إن لنا طريقتنا الخاصة؛ فنحن نقوم بضغط التراب حتى يتحجّر لننقله دون أن يعرف أحد ما هو، ولكن هذا الأمر مجرد تفصيلات ثانوية على أية حال. لقد وثقت بك تماماً يا سيد هاثرلي وأظهرت لك كم أثق بك.

ثم نهض وهو يتكلم قائلاً: سأنتظرك إذن في الساعة الحادية عشرة والربع.

- سأكون هناك بالتأكيد.

- وإيّاك أن تنطق بحرف عن هذا الأمر لأي مخلوق.

قال ذلك وحدّق إليّ بنظرة أخيرة متشككة طويلة، ثم أمسك بيدي وضغط عليها بقبضة باردة

رطبة وأسرع خارجاً من الغرفة.

حسناً، عندما أفكر في الأمر الآن بهدوء أجد أنني كنت مدهوشاً جداً بهذه المهمة المفاجئة التي كُلّفت بها، فمن ناحية كنت سعيداً بالطبع لأن الأجر



رسم سدني باجيت ١٨٩٢ Sydney Paget 1892

يماثل عشرة أمثال ما كنت سأطلبه مقابل خدماتي، كما أن من الممكن أن تتبع هذا الطلبَ طلباتٌ أخرى، ومن ناحية أخرى ترك وجه عميلي وتصرفاته انطباعاً سيئاً في نفسي ولم أقتنع بأن تفسيره الخاص بمسحوق القَصْر كان كافياً لتبرير ضرورة ذهابي في منتصف الليل، بالإضافة إلى قلقه الشديد خشية أن أخبر أحداً بمهمتي. إلا أنني ألقيت بكل شكوكي وراء ظهري، وأكلت وجبة ضخمة ثم ركبت حتى بادنغتون وبدأت رحلتي.

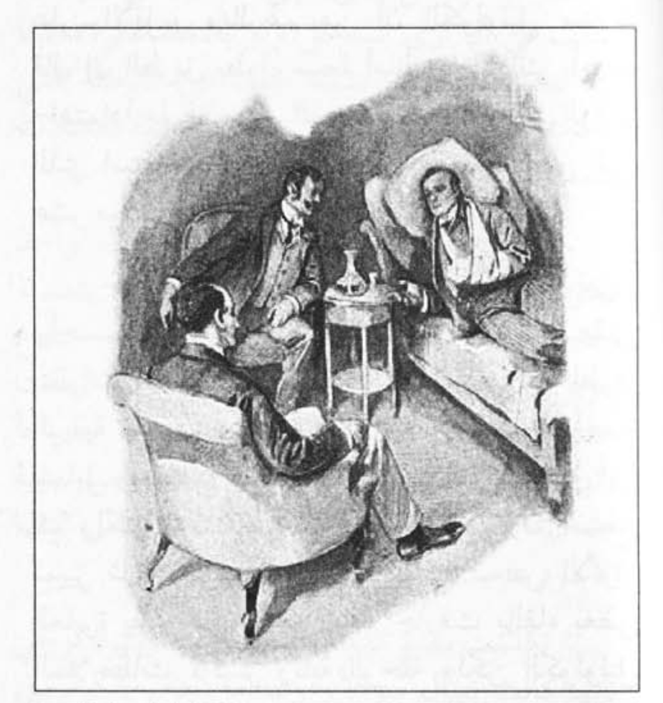
وقد أطعت الأمر بالكتمان حرفياً، وغيّرت القطار في ريدنغ، وتمكنت من اللحاق بالقطار الأخير المتجه إلى آيفورد فوصلت إلى المحطة الصغيرة المعتمة بعد الحادية عشرة. كنت المسافر الوحيد الذي نزل هناك، ولم أجد على الرصيف أحداً سوى حمّال نعسان يمسك مصباحاً، فعبرت البوابة الصغيرة ووجدت الشخص الذي تعرفت إليه في الصباح ينتظرني في الظل على الجانب الآخر، فجذب ذراعي دون أن ينبس بكلمة وحثّني على الإسراع بالدخول إلى العربة التي كان بابها مفتوحاً، ثم أغلق النوافذ على الجانبين ودقّ على الجزء الخشبي فابتعدنا بأسرع ما يستطيع الحصان، ثم...

قاطعه هولمز قائلاً: حصان واحد؟

- نعم، واحد فقط.

- هل لاحظت لونه؟

- نعم، لقد رأيته في ضوء المصابيح الجانبية وأنا أدخل إلى العربة.



رسم جوزف فريدرتش ١٩٠٦ Josef Friedrich 1906

- هل بدا عليه التعب أم النشاط؟

- بل بدا نشيطاً لامعاً.

- شكراً. أعتذر عن مقاطعتك، وأرجو أن تستمر في قصّ حكايتك الشيقة.

- ابتعدنا كثيراً، فقد قطعنا الطريق في ساعة على الأقل، وبالرغم من أن الكولونيل ستارك قال إن الطريق بطول سبعة أميال فقط فإنني أعتقد -اعتماداً على المعدَّل الذي كنا نسير به وعلى الوقت الذي استغرقَته الرحلة- أن المسافة تزيد على اثنَي عشر ميلاً.

جلس الرجل صامتاً طَوال الوقت بجانبي، وأحسست أكثر من مرة حين نظرت إليه أنه يرمقني بنظرات جانبية شديدة الحدّة، ويبدو أن الطرق الريفية سيئة في هذا الجزء من العالم حيث إننا أخذنا نتمايل ونتخبط، فحاولت النظر من النوافذ لأرى أين كنا ولكنها كانت من الزجاج المُصَنْفَر ولم أستطع تمييز شيء سوى اللمعان الضبابي لبعض الأنوار العابرة بين حين وآخر. وقد جازفت بإلقاء بعض الملاحظات لأكسر رتابة الرحلة ولكن الكولونيل كان يجيب بجمل مقتضبة فقط، ولذلك سرعان ما

توقفت المحادثة.

وأخيراً تبدّل الطريق السيّئ فصار ناعماً مثل طريق معبَّد بالحصى، ثم توقفت العربة وقفز الكولونيل ستارك خارجاً، وحين هممت بالنزول خلفه سحبني بسرعة إلى مدخل مسقوف أمامنا فدخلنا مباشرة من العربة إلى القاعة، وهكذا فقد فشلت في أن أرى المدخل ولو بلمحة عابرة، كما أن الباب قد صُفق بشدة خلفنا في اللحظة التي اجتزت فيها العتبة، وسمعت صوت قرقعة العجلات بينما كانت العربة تبتعد.

ساد الظلام الدامس داخل المنزل وأخذ الكولونيل يتحسس بحثاً عن كبريت وهو يتمتم، وفجأة فُتح باب في نهاية الممر واندفع شعاع طويل من الضوء الذهبي باتجاهنا، ثم اتسعت مساحة الضوء وظهرت امرأة تمسك بيدها مصباحاً وترفعه فوق رأسها وهي تحملق إلينا. استطعت رؤية جمالها، ومن اللمعة التي عكسها الضوء على ثوبها الأسود عرفت أنه من قماش غالي الثمن.

تكلمت بضع كلمات بلغة أجنبية وبنبرة توحي بأنها كانت تسأل سؤالاً، وعندما أجاب الكولونيل بطريقة خشنة مقتضبة جفلَت حتى كاد المصباح

يقع من يدها، فاقترب منها وهمس في أذنها بضع كلمات، ثم دفعها إلى داخل الغرفة التي خرجت منها ومشى ناحيتي ثانية والمصباح في يده، وقال وهو يفتح باباً آخر: أرجو أن تتكرم وتنتظر في هذه الغرفة لبضع دقائق.

كانت غرفة هادئة صغيرة بسيطة الفرش، وفي وسطها طاولة مستديرة عليها كتب ألمانية مبعثرة. وضع الكولونيل ستارك المصباح فوق آلة موسيقية كانت بجوار الباب وقال: لن أتركك طويلاً. ثم توارى في الظلام.

ألقيت نظرة على الكتب المبعثرة على الطاولة، وبالرغم من جهلي باللغة الألمانية إلا أنني استطعت معرفة أن اثنين منها كانا عن أبحاث في العلوم، أما الكتب الأخرى فكانت في الشعر. وبعد ذلك ذهبت إلى النافذة أملاً في رؤية بعض المناظر الريفية، ولكني وجدتها مسدودة بمصراعين من خشب البلوط مغلقين بإحكام بمزلاج قوي.

كان المنزل هادئاً بشكل عجيب، ولولا دقّات عالية تصدر عن ساعة قديمة في مكان ما من الممر لعمّ السكون القاتل كل شيء. وبدأ شعور غامض بعدم الراحة يتسلل إلى نفسي، فمَن هم هؤلاء

الناس الألمانيون؟ ولماذا يعيشون في هذا المكان الغريب البعيد؟ وأين هو هذا المكان؟ لقد كنت على مسافة عشرة أميال أو نحو ذلك من آيفورد، هذا كل ما أعرفه، ولكنني لا أعرف ما إذا كان ذلك باتجاه الشمال أو الجنوب أو الشرق أو الغرب! وبما أن ريدنغ ومدناً كبيرة أخرى قد تكون ضمن هذا المجال فالمكان قد لا يكون منعزلاً جداً، ولكنه يقع في قلب الريف بالتأكيد بدليل السكون التام.

أخذت أذرع الغرفة ذهاباً وإياباً وأنا أدندن بنغمة خافتة حتى أحتفظ بمعنويات عالية وأشعر بأنني أستحق الجنيهات الخمسين. وفجأة وبلا أي صوت تمهيدي وسط السكون المطلق فُتح باب الغرفة ببطء ووقفت المرأة في فتحة الباب والضوء الأصفر من المصباح ينعكس على وجهها القلق الجميل، وأدركت بلمحة واحدة أنها كانت شديدة الخوف فسَرَت في قلبي القُشَعْريرة بسبب منظرها. رفعت إصبعاً مرتعشاً لتحذّرني لكي أصمت، ثم كلّمتني بضع كلمات سريعة بلغة إنكليزية ركيكة وعيناها تنظران إلى العتمة خلفها كحصان خائف، فقالت وهي تحاول أن تتكلم بأقصى ما تستطيع من الهدوء: لو كنت مكانك لغادرت. لا يجب أن تبقى

هنا... ليس من الخير لك أن تفعل.

فقلت: ولكن أنا لم أقم بعدُ بالمهمة التي جئت من أجلها يا سيدتي، وليس من الممكن أن أغادر قبل أن أرى الآلة.

فاستمرت قائلة: إن الأمر لا يستحق تعبك، يمكنك الخروج من الباب ولن يعيقك أحد.

وعندما رأتني أهزّ رأسي وأبتسم رمَت بتحفظها جانباً وخطت إلى الأمام وقالت: اخرج من هنا بالله عليك قبل فوات الأوان.

ولكني عنيد بطبيعتي، وتزداد رغبتي في القيام بمهمة ما عندما أجد عقبات في طريقي، ففكرت في الجنيهات الخمسين، أجرة عملي، وفي رحلتي المرهقة وفي الليلة البغيضة التي بدا لي أنني تجاوزتها، فهل أترك كل شيء يذهب بلا ثمن؟ ولماذا أنسلّ هارباً دون أن أقوم بمهمتي؟ وما أدراني؟ فقد تكون هذه المرأة مجنونة. لذلك وبالرغم من أن تأثير تصرفها في نفسي كان أكبر مما أودّ الاعتراف به إلا أنني اتخذت موقفاً شجاعاً وهززت رأسي معلناً نيتي في البقاء حيث أنا. وكانت على وشك تجديد توسّلاتها حين صُفق باب في الأعلى وسُمِع صوت

خطوات على الدرَج، فأرهفَت السمع ورمت يديها إلى الأعلى بحركة يائسة، ثم اختفت فجأة بلا ضجّة كما ظهرت.

كان القادمون الجدد هم الكولونيل ستارك ورجل قصير سمين ذو لحية كثّة تكسو ثنايا ذقنه،



رسم سدني باجيت ١٨٩٢ Sydney Paget 1892

وقد قُدِّم لي على أنه السيد فيرْغَسون. قال الكولونيل: إنه مساعدي ومدير أعمالي. وبالمناسبة، أظن أنني تركت هذا الباب مغلقاً، أخشى أن تكون قد شعرت بتيار هواء بارد.

فقلت: على العكس، لقد فتحت الباب بنفسي لأنني أحسست أن هواء الغرفة مكتوم جداً.

فرمقني بإحدى نظراته المتشككة وقال: لعل من الأفضل أن نبدأ بالعمل إذن. سآخذك أنا والسيد فيرغسون إلى الآلة في الأعلى.

- إذن فمن الأفضل أن أضع قبعتي على رأسي.

- لا داعي لهذا؛ إنها داخل المنزل.

- ماذا؟! أتستخرج مسحوق القَصر في داخل المنزل؟

- لا، لا؛ هذا هو المكان الذي نكبسه فيه فقط. ولكن دعنا من ذلك، كل ما نريدك أن تفعله هو أن تفحص الآلة وتخبرنا بالعيب فيها.

صعدنا إلى الدور العلوي معاً يتقدمنا الكولونيل ومعه المصباح ووراءه المدير السمين، وأنا خلفهما.

كان المنزل القديم كالمتاهة بأروقة وممرات ودرَج دائري ضيّق وأبواب منخفضة متآكلة العتبات بتأثير الأجيال التي عبَرَتها. لم يكن هناك سجاد ولا أثرَ لأي أثاث عدا الموجود في الطابق السفلي، بينما تقشر الطلاء عن الجدران وتسربت الرطوبة لتظهر في شكل بقع خضراء غير صحية.

حاولت أن أبدي عدم اكتراثي قدر الإمكان، وإن كنت لم أنسَ تحذير السيدة بالرغم من تجاهلي له، ولذلك فقد أخذت حذري من رفيقَيّ. وقد بدا فيرغسون رجلاً كئيباً صامتاً، ولكني فهمت من القليل الذي قاله على الأقل أنه من الريف الإنكليزي.

توقف الكولونيل ستارك أخيراً أمام باب منخفض قام بفتحه وتقدّمني لأدخل بعده إلى غرفة مربعة صغيرة لم تكن تتسع لثلاثتنا مرة واحدة، فظلّ فيرغسون في الخارج. وقال ستارك: نحن الآن داخل المكبس، وسيكون من غير اللطيف لو قام أحد بتشغيله، فسقف هذه الغرفة الصغيرة هو في الحقيقة الجزء الهابط في المكبس، وهو يهبط بقوة عدة أطنان على هذه الأرضية المعدنية، وفي الخارج عدة أعمدة جانبية صغيرة من الماء هي التي تستقبل الضغط لتنقله وتضغطه بالطريقة التي تعرفها.

الآلة تبدأ العمل بسهولة، ولكننا نجد بعض التصلّب في عملها، كما أنها فقدت القليل من قوتها. هلا تكرمت بأن تفحصها وتدلّنا على طريقة إصلاح العيب؟

أخذت منه المصباح وفحصت الآلة بدقّة شديدة. كانت حقاً آلة بالغة الضخامة وقادرة على توليد ضغط هائل، ولكن عندما خرجت وضغطت الروافع التي تتحكم بها إلى الأسفل دلّني صوت الأزيز على الفور أن فيها تسرّباً بسيطاً يسمح باندفاع الماء خلال إحدى الأسطوانات الجانبية. وأظهر الفحص أن أحد الأربطة المطاطية التي كانت تحيط بقمة عمود الدفع قد تقلص بحيث لم يعد يسدّ تماماً التجويف الذي يوضع عليه، وكان من الواضح أن هذا هو سبب فقدان قوة الضغط.

وضّحت الأمر لمرافقَيّ اللذين استمعا إلى ملاحظاتي بحرص شديد وسألا عدة أسئلة عملية عن الطريقة التي يجب أن يتّبعاها لإصلاح الآلة. وعندما أوضحت لهما الأمر عدت إلى غرفة الآلة وألقيت عليها نظرة لأُرضي فضولي، ولم أحتَج إلا لنظرة واحدة لأدرك بوضوح أن موضوع مسحوق القَصْر كان مجرد اختلاق، فمن المنافي للعقل أن

نفترض أن مثل هذا المحرّك القوي قد صُمِّم لذلك الغرض البسيط. كانت الجدران من الخشب، أما الأرضية فكانت تتكون من وعاء حديدي واسع، وعندما فحصته استطعت أن ألاحظ أنه مُغطى بقشرة من الرواسب المعدنية، فانحنيت وأخذت أكشطها محاولاً معرفتها حين سمعت صيحة تعجب بالألمانية ورأيت وجه الكولونيل الشاحب ينظر إليّ من الأعلى، وسأل قائلاً: ماذا تفعل هناك؟!

شعرت بالغضب لأنني خُدعت بتلك القصة المتقَنة التي أخبرني بها، فقلت: كنت أتأمل مسحوق القصر بإعجاب، وأظن أن بإمكاني أن أقدّم لك نصيحة أفضل بشأن آلتك إذا ما عرفت الغرض الذي تُستخدَم فيه.

لكنني سرعان ما ندمت على تسرعي في الحديث في اللحظة التي نطقت فيها بهذه الكلمات، فقد قست ملامح وجهه وقدحت عيناه الرمادية شرراً وقال: حسناً، ستعرف عن هذه الآلة كل شيء.

ثم خطا خطوة إلى الخلف وصفق الباب الصغير وأدار المفتاح في القفل. أسرعت إلى الباب وأخذت أجذب المقبض إلا أنه كان مُغلقاً بإحكام

فلم يتزحزح ولو قليلاً أمام ركلاتي وضرباتي، فصرخت قائلاً: أيها الكولونيل، أخرجني.

بعد ذلك سمعت فجأة صوتاً جعل قلبي يقفز من مكانه، كان صوت صلصلة الروافع وأزيز الأسطوانة المثقوبة؛ لقد قام بتشغيل المحرك! كان المصباح لا يزال على الأرض حيث تركته عندما انحنيت لفحص الوعاء، فرأيت في ضوئه السقف الأسود وهو يهبط باتجاهي ببطء وبحركة مُتقطّعة، ولكن بقوة قادرة -كما أعرف أكثر من أيّ شخص آخر- على أن تسحقني وتحوّلني في لحظة إلى عجينة لا شكل لها!

رميت بنفسي على الباب وأنا أصرخ وأشدّ القفل بأظافري، كما أخذت أتوسل إلى الكولونيل ليسمح لي بالخروج، ولكن صرخاتي تلاشت أمام صلصلة الروافع الحادّة، وصار السقف على بُعد قدم أو قدمين من رأسي، فكنت أستطيع حين أرفع يدي أن أشعر بصلابة سطحه وخشونته. ثم ومضت في ذهني فكرة أوحت لي بأن الألم الذي سأعانيه قبل موتي يعتمد إلى حد كبير على الوضع الذي سأكون فيه، فلو نمت على وجهي فسوف يهبط الثقل على عمودي الفقريّ، فاقشعرّ بدني حين فكرت بالصوت

المريع الذي سينتج عن ذلك! قد يكون الوضع أسهل لو نمت على ظهري، ولكن هل أملك من الشجاعة ما يجعلني أنام وأنظر إلى ذلك الظل الأسود القاتل وهو يتمايل إلى الأسفل باتجاهي؟

كان السقف قد دنا مني أكثر وأكثر ولم أعد



Sydney Paget 1892 رسم سدني باجيت ١٨٩٢

قادراً على الوقوف بجسم منتصب حين وقعت عيناي على شيء بعث الأمل في قلبي.

قلت لكم إن السقف والأرضية كانا من الحديد إلا أن الجدران كانت من الخشب، وبينما كنت أنظر حولي بسرعة رأيت بنظرة أخيرة خيطاً دقيقاً من الضوء الأصفر يبدو بين لوحين من الخشب، ثم أخذَت رقعة الضوء تتسع وتتسع حين دفُع أحد الألواح الصغيرة إلى الخلف، وللحظة لم أصدق أن هناك حقاً مخرجاً يقودني بعيداً عن الموت. وفي اللحظة التالية رميت بنفسي عبره ورقدت وأنا في شبه غيبوبة في الناحية الأخرى. كان اللوح قد أُغلق ثانية بعد خروجي، إلاّ أنني أدركت من صوت تحطم المصباح وبعده بلحظات صوت قرقعة اللوحين المعدنيين أنني قد أفلتّ في اللحظة الأخيرة.

أعادتني إلى رشدي شَدّة هائجة لمعصمي، ووجدت نفسي راقداً على الأرض الصخرية للرواق الضيق فيما انحنت فوقي امرأة وراحت تشدّني بيدها اليسرى وهي تمسك شمعة بيدها اليمنى. كانت نفس الصديقة الطيبة التي رفضتُ الاستماع إلى تحذيرها، وصاحت بأنفاس مُتقطّعة: تعال، تعال! سيحضران إلى هنا بعد لحظة عندما يكتشفان أنك لست هناك.

آه، لا تضيّع هذا الوقت الثمين، تعال!

في هذه المرة لم أستهِن بنصيحتها، بل تمايلت واقفاً على قدميّ وجريت معها عبر الرواق لنهبط بعد ذلك الدرَج الدائري الذي قادنا إلى ممرّ عريض، وما كدنا نصل إليه حتى سمعنا صوت أقدام تجري وصوت شخصين يصرخان وأحدهما يردّ على الآخر من الطابق الذي كنا فيه ومن الطابق الذي تحته، فتوقفَت مُرشدتي وأخذت تتلفّت حولها كشخص أعيته الحيلة، ثم فتحت باباً يقود إلى غرفة نوم بدا القمر يتلألأ من نافذتها بوضوح، وقالت: إنها فرصتك الوحيدة... إنها عالية، ولكن قد تستطيع القفز.

حينما كانت تتكلم ومض ضوء في نهاية الممر، ورأيت هيئة الكولونيل ستارك النحيلة مسرعة إلى الأمام وهو يمسك بإحدى يديه مصباحاً وفي الأخرى سلاحاً يشبه ساطور الجَزّار، فأسرعت عبر غرفة النوم لأفتح النافذة بسرعة وأنظر إلى الخارج. وكم بدت الحديقة هادئة ولطيفة في ضوء القمر. وقدّرت أن النافذة ترتفع عن الأرض نحو عشرة أمتار، فتسلّقت بصعوبة حتى عتبة النافذة، لكنني تردّدت في القفز حتى أسمع ما سيدور بين منقذتي

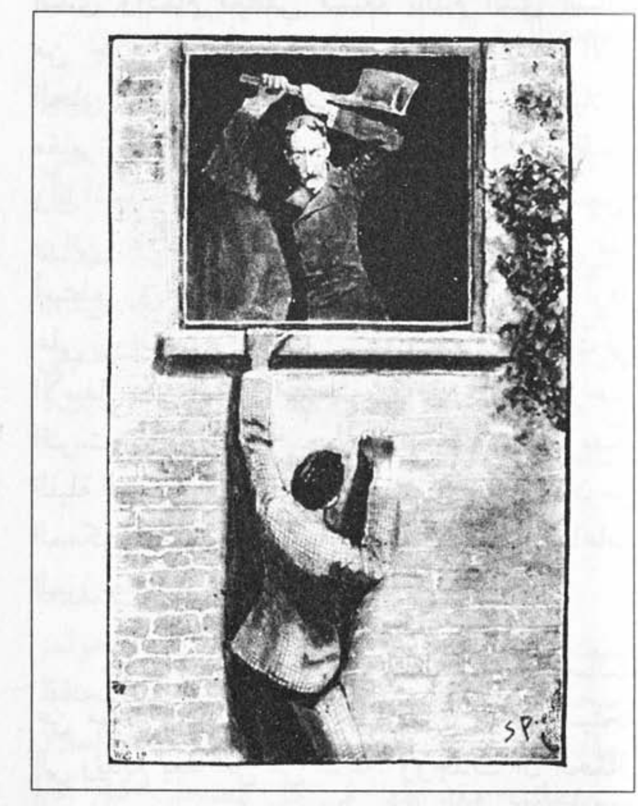
والشرّير الذي يلحق بي، فلو أساء إليها بأية طريقة كنت سأعود لمساعدتها مهما كان الثمن. وما كادت هذه الفكرة تخطر على بالي حتى كان هو عند الباب يحاول أن يمر متجاوزاً إياها، ولكنها ألقت بذراعيها حوله محاولةً منعه وصاحت بالإنكليزية قائلة: فريتز، فريتز! تذكّر وعدك بعد المرّة الأخيرة، لقد قلت إن هذا لن يتكرر ثانية. لن يتكلم، لن يتكلم!

فصرخ قائلاً وهو يحاول التملص منها: إنك مجنونة يا إليس... سيكون دمارنا على يديك. لقد رأى الكثير. أقول لك دعيني أمرّ.

ثم دفعها جانباً وأسرع إلى النافذة وسدّد لي ضربة خاطفة بسلاحه الثقيل، وكنت قد قفزت وتعلّقت بحافة النافذة بيدي عندما أصابتني ضربته، فشعرت بألم غير محدّد وارتخت قبضتي فسقطت على أرض الحديقة في الأسفل.

هزّتني الصدمة ولكنها لم تؤذني، فاستجمعت نفسي لأقف وأسرعت بين الأشجار وأنا أجري بأقصى طاقتي لأنني عرفت أن الخطر ما زال قائماً، وفجأة انتابني شعور بالدُّوَار والإعياء وأنا أجري، فنظرت إلى يدي التي كانت تنبض بالألم ورأيت

للمرة الأولى أن إبهامي قد قُطع وأن الجرح ينزف بغزارة. حاولت ربط منديلي حوله ولكني شعرت بطَنين في أذني، وسقطت بعد لحظة في غيبوبة عميقة بين شُجيرات الورد.



رسم سدني باجيت ١٨٩٢ Sydney Paget 1892

لم أعرف كم مضى عليّ وأنا فاقد الوعي، ولكن لا بدّ أنه كان وقتاً طويلاً جداً، فعندما استعدت وعيي كان القمر قد غاب وبدأ ضوء الصباح بالانتشار. كانت ملابسي مبللة تماماً بقطرات الندى وأكمام معطفي مشبّعة بالدم الذي انساب من جرح إبهامي المقطوع، وقد ساعدني الألم الحاد الذي كنت أشعر به على استرجاع تفصيلات مغامرتي الليلية في لحظة، فقفزت واقفاً على قدميّ وأنا أشعر بأنني لم أصبح بعدُ في مأمَن ممّن يسعون ورائي، ولكن دُهشت حين بدأت أنظر حولي فلم أستطع رؤية المنزل ولا الحديقة؛ لقد كنت أرقد على زاوية سياج قريب من الطريق العام، ورأيت في الأسفل على انحدار بسيط مبنى طويلاً علمت حين اقتربت منه أنه مبنى المحطة التي وصلت إليها مساء الليلة الماضية. ولولا الجرح البشع في يدي لكان من الممكن أن يكون كل ما حدث في تلك الساعات المروّعة حلماً بغيضاً.

ذهبت إلى المحطّة وأنا أشعر بدُوَار، وسألت عن موعد قطار الصباح فعرفت أن واحداً سيتجه إلى ريدنغ بعد أقل من ساعة. ووجدت أن الحمّال الموجود بالخدمة هو نفسه الحمّال الذي كان

هناك عند وصولي، فسألته عمّا إذا كان قد سمع بالكولونيل ليساندر ستارك، ولكن الاسم كان غريباً عليه، وحين سألته إن كان قد لاحظ العربة التي كانت تنتظرني في الليلة السابقة أجابني بأنه لم يفعل، كما سألته أيضاً إن كان يعرف مركزاً قريباً للشرطة فأجاب بأن هناك واحداً على بُعد ثلاثة أميال.

كان بعيداً جداً بالنسبة لي وأنا في تلك الحالة من الضعف وسوء الحال، فقررت أن أنتظر حتى أعود إلى المدينة قبل أن أروي حكايتي للشرطة. وحين وصلت كانت الساعة قد تجاوزت السادسة بقليل، وهكذا ذهبت أولاً لأضمّد جرحي، وعندها كان الدكتور واطسون من اللطف بحيث أحضرني إلى هنا. وها أنا أضع هذه القضية بين يديك، وسأفعل كل ما تنصحني به.

* * *

جلسنا جميعاً في صمت لبعض الوقت بعدما سمعنا تلك الحكاية الغريبة، ثم قام شيرلوك هولمز وسحب أحد الكتب الضخمة المألوفة التي يحتفظ فيها بقصاصات من الصحف، ثم قال: ها هو إعلان قد يهمك، وقد ظهر في كل الصحف قبل عام

تقريباً. اسمع الآتي: «مفقود: غادر السيد جيرمي هايلنغ منزله في الساعة العاشرة من مساء التاسع من أيلول (سبتمبر)، وهو مهندس هيدروليكي يبلغ من العمر ستة وعشرين عاماً، ولم تُعرف عنه أية أخبار حتى الآن، وقد كان يرتدي...» إلى آخره. ها؟ أظن أن هذا يوضح ما حدث في المرّة السابقة التي أراد فيها الكولونيل فحص آلته.

فصاح مريضي قائلاً: يا إلهي، هذا يوضّح ما قالته الفتاة!

- بلا شك. من الواضح تماماً أن الكولونيل كان رجلاً بارداً متهوّراً ومصمماً على أن لا يترك شيئاً يقف في طريق لعبته الصغيرة، مثل القراصنة الذين لا يتركون أي ناجين من السفن التي يستولون عليها. حسناً، كل دقيقة تمر الآن غالية، ولذلك سنذهب إلى إدارة سكتلنديارد في الحال في خطوة تمهيدية للذّهاب إلى آيفورد... إذا كنت تشعر بأنك قادر على ذلك.

* * *

بعد ثلاث ساعات أو نحو ذلك كنا جميعاً في القطار المتجه من ريدنغ إلى قرية بيركشاير

الصغيرة، وقد ضمّ جمعنا شيرلوك هولمز والمهندس الهيدروليكي والمفتش برادستريت من سكتلنديارد، بالإضافة إليّ وإلى شخص يرتدي ملابس بسيطة. كان برادستريت قد بسط إحدى خرائط المساحة التفصيلية للريف على مقعد أمامه، وكان مشغولاً برسم دائرة مستخدماً البوصلة بحيث تكون آيفورد هي المركز، وقال: ها هي الدائرة قد رُسمت بحيث يكون نصف قطرها عشرة أميال ومركزها القرية، والمكان الذي نريده لا بد أن يكون قريباً من هذا الخط.

- لقد استغرقت الرحلة ساعة بالعربة بسرعة جيّدة.

- وأنت تظن أنهم أعادوك كل هذا الطريق وأنت فاقد الوعي؟

- لا بد أن هذا ما فعلوه، فأنا أذكر بشكل مشوّش أيضاً أنني قد حُملت ونُقلت إلى مكان ما.

فقلت: الأمر الذي لا أستطيع فهمه هو سبب إبقائهم عليك بعد أن وجدوك فاقداً الوعي في الحديقة! ربما كان الشرير قد رقّ قلبه نتيجة لتوسلات المرأة.

- لا أظن أن هذا محتمل، فلم أرَ وجهاً أشدّ

قسوة من وجهه قط.

قال برادستريت: سرعان ما سيتّضح هذا كله. حسناً، لقد رسمت الدائرة، والآن أتمنى أن أعرف في أي نقطة يوجد هؤلاء الذين نبحث عنهم.

قال هولمز بهدوء: أظن أن بإمكاني الإشارة إلى ذلك المكان.

فصاح المفتش قائلاً: حقاً؟! هل كوّنت رأياً؟ هيا إذن، لنرَ مَن سيتفق في الرأي معك. أنا أقول إنه في الجنوب لأن المنطقة أكثر عزلة هناك.

قال مريضي: وأنا أقول في الشرق.

قال الرجل ذو الملابس البسيطة: أما أنا فأقول إنه في الغرب حيث توجد عدة قرى هادئة.

أما أنا فقلت: أظنه في الشمال، فلا توجد تلال هناك، وقد قال صديقنا إنه لم يلاحظ صعود العربة على أيّ منها.

فصاح المفتش ضاحكاً: هيّا. إن لكل شخص رأياً مختلفاً تماماً عن الآخر، وهكذا فقد جمعنا اتجاهات البوصلة الأربعة فيما بيننا، فرأي من سترُجّح يا هولمز؟

- أنتم جميعاً مخطئون.

- ولكن لا يمكن أن نكون كلنا مخطئين!

- بل ممكن.

ثم أشار بإصبعه إلى مركز الدائرة قائلاً: هذا هو المكان الذي سنجدهم فيه.

فصاح هاثرلي قائلاً: ولكن ماذا عن مسافة الاثنَي عشر ميلاً التي قطعَتها العربة؟!

- لقد ابتعدت العربة ستة أميال ثم عادت ثانية بمنتهى البساطة، فقد قلت بنفسك إن الحصان كان نشيطاً وجلده لامعاً عندما دخلتَ إلى العربة، فكيف يكون هذا مظهره لو أنه قطع اثني عشر ميلاً على طرق وعرة؟

قال المفتش وهو مستغرق في تفكير عميق: فعلاً، إنها خدعة محتمَلة. وبالطبع فإن نشاط هذه العصابة معروف تماماً.

فقال هولمز: بالطبع، إنها عصابة لتزوير العملة، وهم يستخدمون الآلة لصنع خليط المعدن الذي يستبدلون به الفضة.

قال المفتش: لقد عرفنا بأمر هذه العصابة

منذ بعض الوقت وتتبعنا أثرها إلى ريدنغ، ولكنا لم نستطع الوصول إلى أبعد من ذلك؛ فقد أخفوا آثارهم بطريقة تدل على أنهم خبراء في هذا المجال. ولكننا نلنا منهم الآن بفضل هذه الفرصة.

ولكن المفتش كان مخطئاً، فلم يكن مقدَّراً لهؤلاء المجرمين أن يقعوا في يد العدالة؛ فحين وصلنا إلى محطة القطار في آيفورد رأينا عموداً ضخماً من الدخان يتصاعد من خلف مجموعة من الأشجار في المنطقة المجاورة ويقف معلّقاً فوق الأراضي الريفية كريشة طائر عملاقة، فسأل برادستريت: أهناك منزل يحترق؟

فأجاب رئيس المحطة قائلاً: نعم يا سيدي.

- متى اندلع الحريق؟

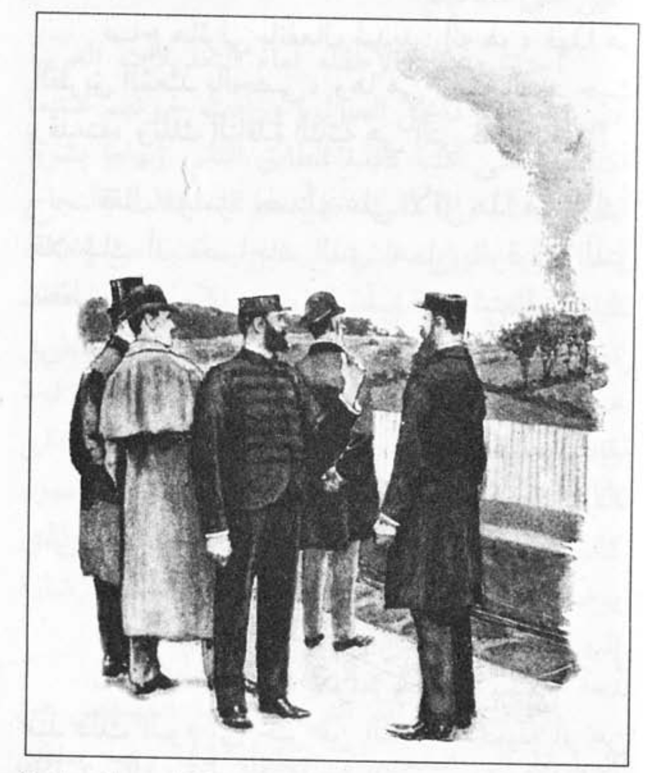
- سمعت أنه بدأ خلال الليل يا سيدي، وقد انتشر حتى التهم المبنى كله.

- ولمن هذا المنزل؟

- للدكتور بيشر.

فصاح المهندس قائلاً: أخبرني، هل الدكتور بيشر ألماني نحيل جداً؟

فضحك رئيس المحطة بحرارة وقال: لا يا سيدي، فالدكتور بيشر رجل إنكليزي، وليس في القرية من هو أسمن منه، ولكن شخصاً يقيم عنده، وهو مريض أجنبي كما فهمت ويبدو من شكله أن بعض الطعام لن يضرّه.



Sydney Paget 1892 رسم سدني باجيت ١٨٩٢

أسرعنا كلنا باتجاه الحريق قبل أن ينهي رئيس المحطة حديثه، وحين اقتربنا رأينا مبنى كبيراً جداً والنار تندلع من كل نافذة وشقّ من شقوقه، وكان في الحديقة الأمامية ثلاثة عمّال إطفاء يجاهدون عبثاً لإخماد الحريق.

صاح هاثرلي بانفعال شديد: إنه هو، فهذا هو الطريق المُعبَّد بالحصى، وها هي أجمة الورد حيث رقدت، وتلك النافذة الثانية هي التي قفزت منها!

فقال هولمز: حسناً، على الأقل هذا هو ثأرك؛ فلا شك أن مصباحك الذي يعمل بالوقود والذي تحطم في المكبس هو السبب في اشتعال النيران في الجدران الخشبية، ولا شك أنهم كانوا منفعلين خلال مطاردتهم لك فلم يلحظوا ذلك في وقته. والآن افتح عينيك وابحث عن أصدقاء الليلة السابقة وسط الحشد، وإن كنت أخشى أنهم أصبحوا الآن على بُعد عدة مئات من الأميال.

* * *

تحققت مخاوف هولمز، فلم يسمع أحدٌ منذ ذلك اليوم أي خبر عن السيدة الجميلة أو عن الألماني الشرّير أو الإنكليزي الكئيب. وقد قابل أحد

الفلاحين في وقت مبكر من ذلك الصباح عربة فيها عدة أشخاص وبعض الصناديق الضخمة وهي تسير مسرعة باتجاه ريدنغ، وهناك اختفت آثار الهاربين تماماً ولم تُفلح حتى براعة هولمز في اكتشاف أي دليل على مكانهم.

احتار رجال الإطفاء أمام التعديلات الغريبة التي وجدوها داخل المنزل، وزادت حيرتهم عندما اكتشفوا على عتبة نافذة الطابق الثاني إبهاماً بشرياً قُطع حديثاً! وإن كانت جهودهم قد تكللت بالنجاح أخيراً عند غروب الشمس حين تمكنوا من إخماد النار، ولكن ليس قبل أن يسقط السقف ويُدمَّر المكان كلياً بحيث لم يبقَ من أثر الآلة التي كلّفت مريضي المسكين الكثيرَ إلاّ بعض الأسطوانات الملتوية والأنابيب الحديدية، كما وجدوا كميات كبيرة من النيكل والقصدير مخزَّنة في ملحق خارجي، وإن كانوا لم يجدوا أية عملات معدنية، وهو الأمر الذي يوضّح مهمة الصناديق الضخمة التي تمّت الإشارة إليها من قبل.

وكانت الطريقة التي نُقِل بها المهندس من الحديقة إلى البقعة التي استعاد فيها وعيه ستظل لغزاً إلى الأبد لولا التراب الناعم الرطب الذي

أخبرنا بقصة في غاية البساطة؛ فقد حمله شخصان، أحدهما له قدمان صغيرتان بشكل ملحوظ والآخر يملك قدمين شديدتَي الضخامة. وقد غلب على ظنّنا أن الإنكليزي الصامت (الذي كان أقل جرأة أو أقل ميلاً إلى القتل من رفيقه فيما يبدو) قد ساعد المرأة في حمل الرجل الغائب عن الوعي بعيداً عن الخطر.

قال المهندس بحزن حين جلسنا في مقاعدنا لنعود إلى لندن: حسناً، لقد كان عملاً رهيباً بالنسبة لي، فقد فقدت إبهامي، بالإضافة إلى خسارتي الجنيهات الخمسين. فماذا استفدت؟

فقال هولمز ضاحكاً: الخبرة! وقد تكون لها قيمة غير مباشرة، فما عليك إلا أن تقصّ الحكاية لتكسب سمعة تدوم طول حياتك بأنك ذو صُحبة ممتازة.

* * *

-تمت-

صدر من هذه المجموعة

مغامرات شيرلوك هولمز

(١) فضيحة في بوهيميا
(٢) قضية هوية
(٣) عصبة ذوي الشَّعْر الأحمر
(٤) لغز وادي بوسكومب
(٥) بذور البرتقال الخمس
(٦) ذو الشّفة الملتوية
(٧) مغامرة الجوهرة الزرقاء
(٨) لغز العصابة الرقطاء
(٩) مغامرة إبهام المهندس
(١٠) مغامرة النبيل الأعزب
(١١) مغامرة تاج الزمرّد
(١٢) منزل الأشجار النحاسية

ذكريات شيرلوك هولمز

(١) ذو الغُرّة الفضية
(٢) لغز الطرد البريدي
(٣) لغز الوجه الأصفر
(٤) مغامرة موظف البورصة
(٥) سفينة «غلوريا سكوت»
(٦) وصية عائلة موسغريف
(٧) لغز بلدة ريغيت
(٨) مغامرة الرجل الأحدب
(٩) لغز المريض المقيم
(١٠) مغامرة المترجم اليوناني
(١١) وثائق المعاهدة البحرية
(١٢) المشكلة الأخيرة

9



The Adventures of Sherlock Holmes



مغامرات
شيرلوك هولمز
تأليف: آرثر كونان دويل



The Adventure of the Engineer's Thumb



ISBN 2-1957-3333-8

